آفاق

عبد الكريم غلاب
سيرة الكتابة الروائية والقصصية (*)

(*) نصوص المداخلات المقدمة في ندوة تكريم عبد الكريم غلاب (اتحاد كتاب المغرب، فاس 10/11 ماي 1991)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

السنن الثقافي في رواية
«وعاد الزورق إلى النبع»

□ أنور المرتجي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تطرح الكتابة الروائية عند الأستاذ عبد الكريم غلاب سؤالاً يطال تجربة الكتابة بصفة عامة عند المثقف الوطني. لماذا يراهن عبد الكريم غلاب على الكتابة في ميادين مختلفة (الرحلات ــ البحث التاريخي ــ العمل الصحفي ــ المقالة) هل هناك وعي خاص بحدود الانتقال من مجال فكري إلى مجال إبداعي، ما هي الدوافع التي تجعل المثقف الوطني ينفتح على أشكال مختلفة من أنواع التواصل ــ هل هناك احساس ما، بصدمة الانتقال من لغة الكتابة السياسية إلى لغة الابداع ؟

لا تسعى هذه الأسئلة أن تصف واقعاً موجوداً، وأن تنبه إلى حالة متميزة، وإذا استبقنا كل تحليل نصي، يمكننا أن نفسر تاريخيا هذه الظاهرة، بأنها تمثل مرحلة في تطور الوعي الفني والفكري داخل الثقافة المغربية، كما أنها تعلن عن زمن النشأة والتشكل الأولي الذي عرفته الأنواع الأدبية في مرحلة صعود ونشأة قوى صاعدة، على المستوى، المحايث، والتحليل النصي ــ ستتوجه بهذا السؤال نحو البحث عن دلالة التعالق والتداخل الذي يحدث بين هذه الممارسات الدلالية المختلفة داخل الكتابة الروائية عند عبد الكريم غلاب كنموذج للمثقف الجمعي الذي ينشطر بين حضوره كذات مرسلة (تذكر بالمناضل السياسي والصحفي) وكمنتج مادي لنصوص إبداعية وأدبية.

لقد سبقنا إلى طرح هذا السؤال مجموعة من الشكلانيين الروس، خصوصاً الناقد ايخنباوم الذي تساءل حول علاقة الحضور والتقاطع بين الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية عن بوشكين.

إن كل نص إبداعي يفصح عن نظريته النقدية كما يقول الناقد التفكيكي بول دي مان، ولهذا

نجد أنفسنا عند دراسة رواية و «وعاد الزورق إلى النبع»، أمام سؤال تقنية الكتابة الإبداعية كما يتصورها عبد الكريم غلاب، من أجل البحث عن سيرورة الانتاج القبلي الذي حدد تشكل وتوليد هذا النص، وبذلك سنجيب من خلال فعل الكتابة الإبداعية عن سؤال القراءة الذي يوجه نشاط الكتابة الروائية عند عبد الكريم غلاب.

تنطلق أحداث الرواية «وعاد الزورق إلى النبع» في السنوات الأولى من استقلال المغرب من خلال متابعة مسيرة شاب من أصل فاسي اسمه فوزي، الذي عين طبيبا لمستشفى مركزي في قرية نائية (بن عبو) حيث سيلاحظ فوزي في هذه القرية هيمنة لسلطة القائد على سكان القرية، كما أنه سيكتشف بالتدريج عزوف سكان القرية عن زيارة المستوصف لأسباب مادية ولإيمانهم بالخرافة، نتيجة لوضع العزلة الذي يعيشه فوزي في هذه القرية سيعمل على فتح قنوات الاتصال والتواصل مع سكانها من خلال الدفاع عن قضاياهم، والسعي إلى تغيير علاقتهم بالمخزن عبر أحداث مجلس قروي منتخب، وتنظيمهم للحرث الجماعي الذي يمنحهم حق استغلالهم لأرضهم، كما أنه على المستوى الانساني سينجح في تغيير حياة أفراد القرية من خلال حثهم على التعليم (شخصية جمعة خادمة المستوصف) وتسريب الوعي السياسي إلى أحمد الذي سينتمي إلى النقابة عند انتقاله للعمل بإحدى المدن الكبرى.

في البداية تدفعنا هذه الرواية، أن نستحضر النصوص الغائبة التي وجهت فعل القراءة السابق عند المؤلف، فمن خلال شخصية فوزي الطبيب الذي يمثل سلاح العلم ضد الخرافة، تتذكر رواية «قنديل أم هاشم» للكاتب المصري يحي حقي، التي قاربت بطريقة فنية ودرامية نفس الموضوع، حيث نجد سكان قرية بن عبو في رواية «وعاد الزورق إلى النبع» يفضلون «استدعاء فقيه القرية ليكتب حجاباً لأن المريض تملكه روح الشيطان» كما أن المرأة في هذه القرية ما زالت تعتقد بوجود «الراقد» بعد أن تجاوزت سن الخمسين، وتعتبر هذه الأشكالية (علاقة العلم بالخرافة) التي تطرحها هذه الرواية من صلب الأسئلة التي جابهت الفكر النهضوي منذ البدايات والتي ما زالت تطرح نفسها إلى اليوم عبر ابدالات مختلفة ترتبط بعلاقة الأنا مع الآخر، من ثنايا النص الثاني الذي تمثله رواية و «عاد الزورق إلى النبع» نجد توظيفاً صريحاً لا سطورة بجماليون «ما يزال فوزي يذكر هذا الشريط الذي اقتبس رواية برنار دشو «بيجماليون» عصرنها وحولها من مثال يصنع من الطين تمثالاً معبوداً لجماله وروعته إلى فنان يصنع من ريفية ساذجة رثة تقطف الورود من الأحراش لتبيعها في أسواق المدينة التي لا تعرف الورود إلا منظومة في أصصها وزهرياتها، يصنع منها تمثالاً جميلا متحضراً متعلما موسيقيا مغنياً ثم ينتهي بعبادته» ص 146. هذا التوظيف الاعتباطي لهذه الأسطورة يتحول عند المؤلف إلى نوع من الحجاج الذي يبرر لفوزي الطبيب أن يحول امرأة (جمعة) من خادمة تعمل في تنظيف المستوصف إلى شخصية ارستقراطية تعرف القراءة والكتابة، وتقوم بمهمة الطبيب، لتصير له زوجاً في آخر الرواية، لكن غياب البعد الدرامي لشخصية فوزي في علاقته بجمعة، وتحقيقه السهل لأهدافه السعيدة دون أن يتمرد التمثال / جمعة على خالقه يجعلنا لا نصدق شخصية فوزي في نواياها ورغباتها النبيلة لأنها لا تمتلك الكفاءة الفنية والمنطقية لتحقيق هذه الرغبة، مما يجعل منها مجرد معبر فني من أجل توصيل خطاب سياسي كبير، يسعى إلى تحقيق التغيير الشامل لمجتمع القرية — انسانيا واجتماعيا على حساب شخصيات لا تمتلك المصداقية الفنية للدفاع عن هذا المشروع النبيل.

المكون الثالث للنص الروائي عند عبد الكريم غلاب، نجده يستعير رسالته من الخطاب السياسي المباشر خصوصاً عند ما يتعلق الأمر بالحديث عن الثنائية التقابلية المدينة / البادية، وعلاقة الفلاح بالأرض حيث يتحول تركيب الفضاء الروائي في رواية «وعاد الزورق إلى النبع» إلى تكثيف لخطاب ايديولوجي يجد أصوله المرجعية في الكتابات السياسية للمؤلف (دفاع عن الديمقراطية ــ الاستقلالية ــ في الاصلاح القروي) وهذه الشواهد التي نقتبسها من الرواية تحيلنا ببساطة إلى مصادرها الأولى، «الحكم هو كل شيء البادية ولهذا يجب أن ندفع الفلاح في الريف إلى مركز المسؤولية، ليشعر بأنه انسان ويشعر بأنه مواطن، ويشعر بأنه مطالب بالأمن له ولغيره من زملائه في المسؤولية، عند ذلك يخف العبء عنه وعن السلطة كلها في المحافظة على الأمن» ص 101، وعن علاقة الفلاح بالأرض تقول الرواية «كل الفلاحين يتحدثون عن الأرض ــ عملهم الأرض ــ لم يرتبطوا بها ارتباط عمل فحسب، ولكن ارتباطاً عضويا، الأرض أمهم» ص 205 «الأرض يملكها ونحن نحرثها» (ص 283) «نحن جميعا ابناء الأرض نحبها تلتصق بها نخدمها نسقيها بعرقنا لتحول شقاءنا إلى سعادة» (ص 276) وعن علاقة المدينة بالبادية يقول المؤلف «في المدينة تعمل كثيرا وتتكلم قليلا، في القرية تتكلم ولا تعمل» (ص 266)، المدينة اصبحت صحية يدخلها الغريب دون سلاح كان سلاحه عضلاته، لم تعد العضلات تكفي اليوم سلاحه عقله قبل عضلاته (ص 232)، «علمتني القرية أن أفر منها ــ المدينة علمتني أن أعود إليها» (ص 233).

هذه الأمثلة المقتبسة من رواية «وعاد الزورق إلى النبع» تحيل إلى لغة خاصة **Idiolecte** تذكر بالنصوص السياسية للمؤلف مدمجة بذلك مفردات وملفوظات جماعية، تعتبر مؤشرات نصية تحيل إلى الوضعية السوسيو لغوية التي ولد فيها نص «وعاد الزورق إلى النبع»، لأن تبني المؤلف لهذه البنية الأسلوبية المغلقة، على حساب تراكيب أسلوبية يعتبر الحوار ضمنيا لصالح الفئة المنتجة لهذه اللغة الخاصة بحيث يتحول هذا الفكر التقابلي، الذي يهيكل بناء النص الروائي عند عبد الكريم غلاب إلى صدى صامت للفكر التعادلي الذي يحدد رؤية المؤلف للعالم من خلال تضمينه للغة جماعية محددة يقرأ من خلالها المؤلف المجتمع والتاريخ والايديولوجيا من موقعه الخاص.

وبالرغم من أن الرواية تبني على علاقات حوارية فإنها مع ذلك تبقى رواية الصوت المفرد الذي يوزع اقواله على شخصيات لا يميز قسماتها خاصية محددة بقدر ما تتوسل إلى هذا التعدد بالاختلاف من خلال استبدال أسماء (جمعة ــ فوزي ــ قدور أحمد ــ القائد) التي تتحول إلى تنويعات مختلفة ظاهريا لصوت واحد ــ هو صوت المثقف الذي يمثله فوزي، حيث يتجه مسار الشخوص حتى نهاية الرواية إلى الاقتراب من شخصية فوزي، وبذلك تكون رواية «وعاد الزورق إلى النبع» رواية المونولوج الذي يتقنع بالحوار وليس بالحوارية، من خلال هيمنة الاستفهام، واستعمال عبارتي السؤال والجواب، فمن خلال عملية إحصائية بسيطة لهذه الظاهرة وجدنا أن عدد العلامات الإستفهامية تتجاوز اربع مائة استفهام، وأحياناً يتم ذلك من خلال تعابير مباشرة مثل «تساءل : أجاب دون أن ينتظر من يجيب» (ص 94) «أسئلة ألحت على فوزي» (ص 28) «علامة استفهام ارتسمت على جبين الطبيب».

إن المؤلف يعمد إلى تحريك كل الامكانيات التقنية كالحوار والاستفهام، من أجل اشراك المتلقي، بغية جلب انتباهه إلى الارتباط بالنص، لأن صيغة الاستفهام والحوار لا تتطلب حوايا بقدر ما

تسعى إلى تمتين العلاقة بالقاري، لكنها مع ذلك لا ترقى إلى أن تقدم لنا مظهرين دلالين مختلفين يدخلان في علاقة تضاد صراع فيما بينهما، بل يتحول السؤال والجواب، إلى مجرد تبادل لقول وكلام واحد، معتمداً في ذلك على صيغتين تركيبتين مختلفتين كما أن التوجه الأثباتي الذي يطبع المسار السردي للنص الروائي عند عبد الكريم غلاب منذ البداية إلى النهاية يجعل العلاقة لا تختل بين القبل والبعد، وذلك من خلال النهاية التي لا تُكذب البداية وهو ما يعطي للمتكلم الأول في النص (فوزي) أن يظهر بمظهر المتكلم الموضوعي، الذي يعرف أكثر من غيره من شخصيات الرواية، نتيجة للعلاقة المنطقية السببية التي تحدد المسار الزمني في الرواية كتحقق موضوعي للزمن الخارجي.

جواباً عن السؤال الذي طرحناه في بداية هذه الدراسة، والمتعلق بالكتابة الابداعية كاختيار عند عبد الكريم غلاب بجانب الكتابة الفكرية والسياسية يمكننا أن نفسر هذه الظاهرة التي يشترك فيها جميع المثقفين الوطنيين، بالرغبة في أخذ الكلمة الذي لا يمكن أن يفسر الا داخل سياق دياكروني يقرأ النشاط الإبداعي داخل حركيته التاريخية، من خلال موضعته داخل ما يسميه لوتمان بنص الثقافة أو السنن الثقافي الذي كان سائداً في مرحلة ما قبل الاستقلال، أي زمن الحصار عندما أمم المستعمر كل اشكال التواصل. مما دفع المثقف الوطني أن يعدد أشكال الحوار والتبليغ (الخطابية ــ الأدبية ــ الفكرية ــ السياسية) حتى يقترب من مواطنيه.

إن دلالة الكاتب الجمعي الذي يمثله المثقف الوطني على شاكلة الأستاذ عبد الكريم غلاب، عندما اختار تاريخياً التجريب الإبداعي حقق جماليا وفنيا وظائف تعبوية وتعبيرية تتجاوز طموحاته ومقاصده الذاتية ــ لأن تبني الاختيار الإبداعي (الرواية ــ القصة) في مرحلة تأسيس الأنواع الأدبية، ساهم في إنشاء لغة تنزل العربية من موقع المتعالي والمقدس إلى مجال الدنيوي ــ وتكسر فيتيشيتها الطاهرة من خلال محاكاة بنيتها التركيبية والدلالية (العامية) للمعيش واليومي لتدشن لمن أتوا بعد عبد الكريم غلاب تقاليد لغوية جديدة تتجاوز النثر التقليدي واللغة الفقهية التي كانت مهيمنة في مرحلة ما قبل تأسيس الرواية.